نافذة

المعلم... قديس ورسول

في حديث للمبدع السوري المعلّم مصطفى العقاد استرعى انتباهي تصريحه الدّال على براعته وقدرته، إذ قال: «لم يكن عمر المختار معلماً، وإنما كان رجل ثورة، ولكنني من معرفتي بالغرب، أعرف أنهم ينظرون إلى المعلم نظرة خاصة، فيها من الإجلال ما فيها، بغض النظر عن المادة التي يعلمها، لذلك اخترت أن يكون المشهد الافتتاحي الدّال في الفيلم يقدم عمر المختار معلماً لأكسب تعاطف المشاهد الغربي معه ومع قضيته» كذلك قال العقاد، وأزعم أن عدداً كبيراً من المشاهدين العرب لا يعرفون هذه الحقيقة، ولكن ما أراه أنّ العقاد كان بارعاً في خياره، ووصل إلى النتائج التي أرادها من هذا المشهد الذي قلّ نظيره في تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم.

المعلم لبّ الحياة عند الغربيين، يجلّونه ويحترمونه، ويتعاطفون معه ومع قضاياه،وإن كانت ناقدة لهم، ومعبرة عن غير ما يخدم رؤاهم، والمعلم كما توضح الأدبيات غاية النبل والاحترام، وإن كان المعلم في وضع سليم خرّج جيلاً سليماً.

نسمع كثيراً من الأسنّ منا عن التوقير والإجلال للمعلم، ونسمع عن الخوف المبالغ فيه منه، فهذا كان يغيّر طريقه حتى لا يراه المعلم، وذاك لا يمر في الساحة أو الجادة التي يتوقع أن يكون المعلم فيها، أو حتى تلك التي له فيها معارف يخبرونه بما قام به الطالب... بل ذهب القول لدى كثيرين طابعاً مبالغاً، فأحدهم لم يكن يتوقع أن المعلم يأكل ويشرب، أو له زوجة وأولاد! إن هذه النظرة من التقدير الذي يقترب من التقديس نظرة حقيقية، ولكن ليس خوفاً كما نظن، بل ينبع من المكانة التي تحلى بها المعلم، والمكانة التي وضعه فيها المجتمع.. فنحن كنا أمام معلمين نادرين، لا هوايات خارجة عن الأطر والقيم لديهم، وأمام مجتمع قدّر المعلم حقّ قدره، فالعائد المادي والمرتب للمعلم كان يكفيه وحده، ولم يكن مضطراً لعمل آخر، مهما سما هذا العمل، فإنه سيأخذ من مهابته ووقته للتحضير والتجهيز للطلبة، وشيئاً فشيئاً بدأ الأمر بالتغيّر، وما كنا نراه في الدراما المصرية وفي السينما، وكنا نستهجنه صار أمراً عادياً لدينا، وصرنا نقابل المعلم السائق، والمعلم الخضري، والمعلم الحلاق، والمعلم البائع المتجول!! ومهما كان لدينا من قيم تحترم العمل وتقدره، إلا أننا لسنا قادرين على تخيل هذا الصنف من المعلمين الذين دعتهم الحاجة لاختيار مهنة أخرى إضافية.

وعندما كنا طلاباً منذ المراحل الأولى كان معلمونا من الصنف المميز، وهذا دفعنا لأن نكون محترمين لهم مجلّين لأدوارهم، لم يفرضوا شيئاً، لم يطلبوا أمراً، وفي كل زمان يوجد الطالب المشاكس، لكنه لم يكن يقترب من المعلم وشخصه إلا نادراً، وإن حصل، فإن الطلبة يقفون مع الأستاذ لا مع زميلهم.. أذكر أساتذتي بالإجلال من المرحلة الابتدائية وإلى اليوم، أذكرهم بالاسم، وأتذكر مواصفاتهم وتعابيرهم، وقلّ أن مر بحياتي معلم لم أسعَ إلى بناء علاقة طيبة معه، فهو القدوة والرائد، وأكثر ما يحزنني أن يحدث أمر ينال من هيبة هذا المعلم أو ذاك، وأتمنى دوماً أن أكون أنا المخطئ، لأن رمزية المعلم أعلى من أي قيمة أو رمز في الحياة كلها.

يثير شيئاً من القرف والاشمئزاز ما يكتب أو يشخص عن المعلم، وخاصة عندما يقدّم بصورة ساخرة أو ينال من أخلاقياته المهنية، ولا يدري الكثيرون أن تقديم هذه الصورة يجعلها صورة نمطية، ويمكن أن تصبح نموذجاً معمماً، فالمعلم المرتشي ليس هو المعلم، بل الشخص الذي يحمل لوثة في ذاته، والفاسد واللاأخلاقي لا علاقة له بالتعليم، لأنه فاسد في تكوينه وليس في المهنة التي نكبت به، والدنيء بنفسه وروحه لا علاقة له بالمعلم والعلم، لأن هذه الصفات ليست صفات مهنية، بل هي شخصية، فالمعلم خلود للإنسان والعقل والمجتمع، وليس دقيقاً قول شوقي (كاد) بل المعلم رسول مكتمل الرسالة، يؤدي فوق أداء الرسالات، لأنه منزوع من صفة التقديس والتعظيم التي يحملها الرسل.. وإن كانت صورة شوقي فيها من التبجيل والتوقير ما فيها، فإن صورة إبراهيم طوقان الواقعية مؤلمة للغاية «إن المعلم لا يعيش طويلاً» «يا من تريد الانتحار وجدته» «وأبيك لم أك بالعيون بخيلاً» مؤلمة وقاسية صورة طوقان، وخاصة إن علمنا أن طوقان توفي في الثلاثينيات من القرن العشرين، ومارس التعليم، وهذا يؤكد أن مكانة المعلم وتقديره لا علاقة للزمن بها، فمنذ ذلك الزمن وجد المعلم الجيد، ومنذ ذلك الزمن وجد الضعف لدى الطلبة، وليس الأمر جديداً كما قد يتوهم بعض التربويين اليوم، وإن كانت نسبة الطلبة المزعجة اليوم أكبر، فمردّ ذلك إلى العدد الهائل وزيادة السكان، وكذلك الأمر لشريحة المعلمين...!

إن عملية التعليم منذ القدم من أقسى المهن وأجلّها، فمن المفضّل إلى الكسائي والأصمعي، وإلى طه حسين ومازن المبارك ومحمود السيد، وإلى المعلم الذي لم يخلق إلى اليوم سلسلة من التعليم والتعلم، عليها تقوم الحياة، وبها تبدأ الحضارة وتنتهي، فمنير العجلاني المعلم الذي دفع تلميذه نزار قباني وقدم له وهو يختلف معه، وأمجد الطرابلسي المعلم الذي سخر منه طلابه برسم كاريكاتيري وكان وزيراً فوافقهم واعتذر لتقصيره..!

إن أبرز شخصيات المجتمع اليوم، التي لها مكانة جاءت من التعليم، فرؤساء الجامعات معلمون قبل الموقع، وإخلاصهم لتعليمهم جعلهم موفقين، وكم من شخص نجح في حياته العامة لأنه كان معلماً، ويقدر الأمور حقّ قدرها، ويتعاطى بأخلاق العلم، فهذا موفق دعبول أصغر حاصل على شهادة دكتوراة في زمانه مضرب مثل في علمه واستقامته، وصلاح الأحمد بعد عقود من رحيله، علمه يبقيه، وذاك عبد الكريم الأشتر وعزيزة مريدن وواثق شهيد وشاكر الفحام وموفق مريدن وحسني سبح وبدر الدين القاسم ونعيم اليافي.. والعلم والتعليم أبقى من ابتعد عن التعليم حاضراً في أذهان الطلبة والمجتمع، فهذا محمد علي حمد الله وذاك رضوان الداية، وغيرهم وغيرهم...

التعليم والمعلم خلاصة من النبل، مهما كان التخصص، فكل طبيب معلم أكثر رحمة من الطبيب غير المعلم، وكل مهندس معلم أكثر إخلاصاً من المهندس غير المعلم، وكل فيلسوف معلم أعلى التزاماً من غير المعلم، فهذا نايف بللوز الحاضر بعد الغياب وعادل العوا وبديع الكسم وغانم هنا وطيب تيزيني... ومحمود فاخوري ومحيي الدين الدرويش وحسين خطاب، وقبلهم عبد القادر المبارك وجودت الهاشمي وظافر القاسمي ومحمد البزم.. ولست أدري إن كان المجال يتسع ليضم سيدة التاريخ الثقة ليلى الصباغ التي ما قرأت التاريخ على مثلها إنصافاً وحزماً، وهاني المبارك الذي كان تاريخاً يتحرك وعاصم البيطار الذي أعطى النحو كما يتنفس– وكان نعم المعلم حتى رحيله عن دنيانا.

المعلم أيها السيد الذي لا يجارى
المعلم أيها النبراس العظيم الذي لا ينال منك شيء
المعلم الخالد دوماً
الرسول وحامل الرسالة..
كل عام وأنت بخير

إسماعيل مروة

«المعلم» لم تطرح حلولاً وعلاجاً لما يحيط به من معاناة ومشكلات وآلام وهموم

الدراما قضت في معظم أعمالها على الصورة المثالية لـ«المعلم».. وحصرت دوره في كل ما يثير السخرية

من مسرحية «مدرسة المشاغبين»

من فيلم «عمر المختار»

من مسلسل «أيام الدراسة»

وائل العدس

يحتفل القطاع التعليمي في سورية خلال أيام شهر آذار من كل عام بيوم المعلم، الذي من المفترض أن يكون كياناً شامخاً يشكل وجدان الأجيال المتعاقبة بالعلم والمعرفة والقدوة الحسنة.

وبغض النظر إن كنا نحتاج إلى يوم نتذكر فيه المعلم أم إن المعلم أكبر من أن يكون له يوم في السنة، ومهما اختلفت الآراء حول صورته، فإن العالم بأسره يقر ويحتفل به منذ العام ١٩٩٤ حيث أقرت المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم يوماً له.

ويُقاس تقدم المجتمعات ورقيها بمستوى اهتمامها بالعلم والتعليم، وبمقدار احترامها للمعلم، الذي يعتبر صاحب الفضل الكبير في مسح الجهل من العقول، وهو اليد التي تمسك بيد الأجيال لتخرجها من ظلام الجهل، إلى نور العلم، ومهما ذكرنا من محاسن للمعلم فلن نوفيه حقه، ولن نبلغ القليل من واجبنا تجاهه.

حين نفكر قليلاً ونعود بالتاريخ للوراء نستنتج أن المعلم هو أساس تطور جميع البلدان، في جميع ميادين الحياة، وله الفضل في وصول كل شخص في الحياة إلى هدفه وطموحه، وهو أولى الناس بالتبجيل والتعظيم.

ويُعتبر المعلم إحدى أهم أدوات النهضة لدى أي أمة من الأمم، فهو المربي الذي تنهض الأجيال على يديه، وهو أحد أهم مصادر المعلومات لدى الطلبة، والأهم من هذا أنه المسؤول عن صياغة العقول، وإظهار مواطن الإبداع لدى كل فرد من الأفراد، ولطالما انتشرت قصص أولئك العظماء الذين ما كانوا ليحفروا أسماءهم على صفحات التاريخ الإنساني لولا معلموهم الذين آمنوا بهم وكانوا بمنزلة الحواضن التي احتضنتهم وبثتهم في المواقع المختلفة التي يستحقونها.

يوم المعلم اتفق العالم وكنوع من أنواع التكريم للمعلمين على الاحتفال بهم كل عام، إذ تحتفل قرابة مئة دولة حول العالم بهذا اليوم المهم.

ويهدف يوم المعلم أساساً إلى تكريم المعلمين وتعظيم شأنهم في مجتمعاتهم، كما يهدف أيضاً إلى معرفة احتياجاتهم وتوفيرها لهم من أجل أن يؤدوا رسالتهم على أكمل وجه وأتم صورة ممكنة، ومن الأمور المهمة التي يهدف إليها أيضاً يوم المعلم الارتقاء بمهنة التعليم بشكل كامل والنهوض بها، فكما هو معروف فقد تراجعت هذه المهنة في العديد من مناطق العالم وخاصة في تلك المناطق التي تعاني الفقر الشديد والتي لا يجد فيها الناس قوت يومهم، ما فوت الفرصة عليها للنهوض واللحاق بركب الحضارة والأمم.

يوم المعلم حول العالم

على الرغم من أن قسماً كبيراً من دول العالم يحتفل بيوم المعلم في آذار، إلا أن هناك بعض الدول التي تحتفل به في أيام أخرى، فمثلاً يُحتفل بيوم المعلم في أفغانستان في الرابع والعشرين من شهر أيار، وفي الأرجنتين في الحادي عشر من شهر أيلول، وفي أستراليا في الجمعة الأخيرة من شهر تشرين الأول، وفي المجر في الأول من حزيران، وفي لبنان وفي البيرو في السادس من شهر تموز، وفي فلسطين في الرابع عشر من شهر كانون الأول وهكذا.

ولكن كيف كانت صورته بالدراما والمسرح؟ كيف تناول الكتّاب شخصية المعلم؟ وهل كانت واقعية أم كانت أقرب للسخرية؟

حركات هزلية

بأداء مبالغ فيه من الممثلين، وسلسلة من الحركات الهزلية قدّم كتّاب الدراما شخصية المدرس، وأصبحت نمطية الإبداع عند الاقتراب من تلك الشخصية درامياً تنحصر في كل ما يثير الضحك، حتى الأعمال التي حاولت تقديمه من منظور أنه صاحب رسالة سقطت في براثن طرحها في إطار أنه مغيب عن الواقع، وجعلت صدمته من الانحدار العلمي والأخلاقي للمجتمع وسيلة للضحك.

وقضت الدراما في معظم أعمالها على الصورة المثالية للمدرس، فقدمت هذه الشخصية، بطريقة نمطية أحياناً، وساذجة في أغلب الأحيان، وانحصر هذا الدور درامياً في كل ما يثير السخرية.

وشهدت الشاشة تجسيد المعلم في صورة مشوهة وأقرب إلى الاستهزاء، وظهر بشكل هزلي كأنه «مهرج» يتحدث بطريقة تثير الضحك والسخرية، وكان مربي الأجيال على الشاشة الفضية مادة للسخرية من جانب الطلبة، ليجعل مربي الأجيال عنصر الضحك الأول والأخير.

وعلى الرغم من أن تلك الشخصية مملوءة بالتفاصيل الدرامية التي تحتاج إلى أكثر من عمل فني لرسمها سواء بتناول حياتها الوظيفية أو الخاصة إلا أن المؤلفين والمخرجين اختصروا كل ذلك ليقدموا شكلاً متواضعاً لتلك الوظيفة المهمة الثرية بالكثير من المعاني والأبعاد الإنسانية.

«أيام الدراسة» مثلاً سلط الضوء على حياة الطلاب من وجهة نظر ساخرة من دون التطرق إلى حياة المعلمين وما تعكسه أجواء المدرسة على حياتهم حتى إنه لم يحاول إيجاد طريقة لطرح معاناتهم، وإن كان العمل قد حظي بمتابعة غير مسبوقة في أوساط المراهقين.

العمل من تأليف طلال مارديني، وإخراج إياد نحاس في الجزء الأول، ومصطفى برقاوي في الجزء الثاني وبطولة: وائل رمضان، ودينا هارون، وفاتن شاهين، وجيهان عبد العظيم، ومحمد قنوع، وشادي زيدان، ووائل زيدان، وعلاء قاسم، ونادين قدور، معتصم النهار، ومديحة كنيفاتي، ويامن الحجلي، وأيمن عبد السلام، وآلاء عفاش، وخلود عيسى، ورولا الأبيض، وميرنا المعلولي، وحازم زيدان، وخالد حيدر، وهامي البكار وآخرين.

«أشواك ناعمة» تحدث عن شرائح كبيرة من مجتمعنا من خلال طالبات مدرسة في المرحلة الثانوية، لنتابع معاناتهن في المدرسة، ونتعرف على مشاكلهن، كما نكتشف الحالة الاجتماعية التي يعشن بداخلها، لكن اللافت في العمل وبعيداً عن «الموجهة» المنفعلة دوماً يظهر دور المشرفة الاجتماعية الذي قدمته سلمى المصري، لتدخل إلى قلب البيوت، وتعرفنا على طبيعة الأوضاع داخل العائلة، وخصوصية المعاناة، ويصبح بإمكانها معالجة الكثير من المشاكل، فقدمت لنا نموذجاً فريداً لدور المعلم في تربية وتنشئة جيل سليم على أسس علمية وقواعد أخلاقية مهنية.

العمل من تأليف رانيا بيطار وإخراج رشا شربتجي، وبطولة: سلمى المصري، وسليم صبري، وخالد تاجا، وغادة بشور، وغسان مسعود، ومها المصري، وقصي خولي، ونادين سلامة، وإياد أبو الشامات، وجيهان عبد العظيم، ونادين تحسين بيك، وسلافة معمار، ونبال جزائري، ودينا هارون، وروعة السعدي، وأناهيد فياض، وإيمان عبد العزيز، وجمال العلي.

مأخذ درامي

ما يؤخذ على الدراما أنها لم تسلط الضوء على النواحي السيكولوجية والنفسية التي تحيط بالمعلم وحياته؛ لأنه بالنهاية بشر، يشعر ويحب ويكره ويغضب ويفرح ويحزن.

هذه الشخصية لم تطرح حلولاً وعلاجاً لما يحيط بالمعلم من معاناة ومشاكل وآلام نفسية، وهموم حياتية؛ حتى تظهر شخصية المعلم بالصورة التي نرغب أن يكون عليها ويفهم المجتمع دوره في صناعة سواعد الأجيال وبناة الأوطان.

في مصر

في الدراما المصرية بدأت تتدهور المكانة الاجتماعية للمعلم وتنحدر نظرة المجتمع له، تمثل ذلك جلياً وانحصرت صورته بين المعلم الجشع، الذي يصارع من أجل الدروس الخصوصية والمعلم المهان المغلوب على أمره أمام تقلبات الزمن مع جرعة كبيرة من السخرية والاستهزاء من دور المعلم في المجتمع.

وإذا تناولنا بعض الأمثلة التي قدمتها مصر عن حال المدرس والمدرسة والتعليم بصفة عامة فسنلاحظ أنها قدمتها في أكثر من شكل كان أغلبها إما تشويهاً لشكل المدرس وإما السخرية منه ووضعه في إطار واحد فقط، حيث المدرس المطحون الغلبان.

مسلسل «جبل الحلال» سبب موجة من الغضب في أوساط المعلمين بسبب مشهد لمعلم بإحدى مدارس الثانوية العامة للبنات، وهو يتحرش بإحدى تلميذاته في الفصل، واعتبر المعلمون أن المشهد فيه إساءة بالغة لهم ويشوه صورة المعلم اجتماعياً، ويسيء إلى جميع المدرسين، مطالبين وزير التربية والتعليم بالتدخل لوقف ما اعتبروه إهانات من صناع الدراما في حق المعلمين.

في مسلسل «صاحب السعادة» يظهر الفنان أحمد عيد الذي يجسد دور مدرس لغة عربية، والذي يستعين به الفنان عادل أمام لكي يعطي أحفاده دروساً خصوصية، ويتضمن المسلسل عدداً من المشاهد التي ترصد فقدان المعلم «حسن» لهيبته أمام الطلاب الصغار، الذين يرفضون حضور الامتحان الذي قرر أن يعقده لهم معلمهم باعتبار أنهم ليسوا في «المود»، ولا مزاج لهم لدخول امتحانات، فضلاً عن تلجج المعلم طوال مشاهد المسلسل أمام التلاميذ الصغار.

بالانتقال إلى المسرح نجد أن «مدرسة المشاغبين» عبرت عن فوضى كبيرة وعدم انضباط وتوحش غريب من الطلبة تجاه المدرسين، وكأن أبطالها يؤكدون ضرورة وجود قانون صارم يضبط هؤلاء الطلبة.

بشكل عام تناولت الدراما العربية على مر العصور شخصية المعلم بصور متفاوتة ومتباينة أحياناً، وسلطت الضوء على دوره في العملية التعليمية خاصة، وأثره في الحياة عامة.

ويجب أن تعود الدراما للتركيز على دور المدرس وكيف أنه معلم قدوة ويمثل دعامة أساسية من دعامات الحضارة فهو صانع أجيال وناشر علم ورائد فكر ومؤسس نهضة وإذا كانت الأمم تقاس برجالها فالمعلم هو باني الرجال وصانع المستقبل.

> المؤلفون والمخرجون قدّموا شكلاً متواضعاً لتلك الوظيفة المهمة الثرية بالكثير من المعاني والأبعاد الإنسانية

مما قيل في المعلم والعلم

يقول الإمام الشافعي:

اصبر على مر الجفا من معلم
فإنّ رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه
فكبر عليه أربعاً لوفاته
وذات الفتى - والله - بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وفي قصيدته الشهيرة يقول أحمد شوقي:

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي
يبني وينشئ أنفساً وعقولا؟
سبحانك اللهم خير معلم
علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً
وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمداً
فسقى الحديث وناول التنزيلا

بدوره يقول أبو الأسود الدؤلي عن المعلم أيضاً:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
وتراك تصلح بالرشاد عقولنا
أبداً وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت منه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت ويقتدى
بالعلم منك وينفع التعليم